

كذب المستشرقون.. ولو صدقوا!

نشرت الصحف أخيراً ما يلي :

الطلاق الإلكتروني . أو الطلاق عبر «الإنترنت» هو آخر صيحة في سلسلة التيسيرات التي تقدمها الولايات الألمانية لمواطنيها من أجل تقليل الإجراءات الروتينية .

وقد وقع الاختيار على تيسير الطلاق الإلكتروني - وليس الزواج - بعد أن أعلنت الهيئة الاتحادية للإحصاء : أن حالات الطلاق في ألمانيا تبلغ نحو ٢٠٠٠٠ ألف حالة سنوياً . . في حين يصل عدد الزيجات إلى نصف هذا الرقم! . .

وبناء على ذلك . فقد سمحت عدة ولايات بإنشاء مواقع على شبكة «الانترنت» تمكن الأزواج من الانفصال من خلال استخراج صورة من طلب الطلاق الرسمي وملء البيانات المطلوبة . ثم إرسالها إلى المحامي الذي يقدم الطلب للجهة المختصة . . وبذلك لا يحضر الزوج ولا الزوجة إلى المحكمة! ويجيء هذا الخبر شاهداً من بني إسرائيل على أهله :

يجيء في الوقت الذي تُشيع فيه أبواق الاستشراق بأن الطلاق في الإسلام هضم لكرامة المرأة التي يلقي بها زوجها في الشارع إلقاء لا يرعى إلا ولا ذمة . .

يزعمون أن المرأة تلقي . . أو تلفظ «كالنواة» . بينما الأحق بالتهمة هؤلاء الذين يرموننا بدائهم حين يتم طلاقهم هكذا . . وبهذه السهولة . . وهذه السرعة . . التي لا تتيح فرصة للتفاهم والمراجعة . . وإنما هو الطرد من

الحياة الزوجية ..

أما في الإسلام .. ومن خلال قصة .. «فاطمة بنت قيس» فإنك لا تحس بها وحدها .. وإنما هناك فريق عمل دائب الحركة .. لا تحس فيه المطلقة بالاغتراب .. ومن حولها كل هؤلاء الأصحاب موقنة بأن حقها لن يضيع أبداً وأنها لن تكون بالطلاق ذلك الكم المهمل .. منبوذة خلف ظهورنا ..

فالزوج هناك .. في ميدان المعركة مقاتلاً شريفاً .. لم تمنعه معركة الحياة والموت من أن يعيش مشكلة زوجة التي قرر طلاقها .. وهو في الميدان .. حتى تستطيع أن تدبر أمورها في بيت جديد؟! وحتى لا يكون في إرجاء الطلاق إضرار بها ..



وأخوه: ينوب عنه في تدبير شئونه أثناء غيابه .. مستجيباً لأمر الشرع الذي يحكم الموقف كله .. بلا بداء وبلا جفاء ..

والمطلقة نفسها تذهب إلى الحاكم تدافع عن نفسها وعن حقها .. كل هذه الجهود .. أو هذه الأنهار: تصب في المحيط الكبير الذي ينطق بالحكم عدلاً .. وبالحكمة بالغة حد الكمال:

ومن حكمته (ﷺ) ذلك الاحتياط في الاعتداد .. الذي قرر أن يكون في بيت «عبد الله بن أم مكتوم» لا في بيت أم شريك ..

ومع تسليمنا بطهارة الأعراق يومئذ .. إلا أنه اليقين بضراوة الغريزة التي يجب ألا نمنحها من أن تباشر سلطاتها في لحظة من لحظات الضعف الإنساني .



ولا يتركها (ﷺ) تغالب أمواج الأحزان وحدها - وإنما يظل معها حتى أخبرته بمن جاء يخطبها:

معاوية بن أبي سفيان وأبو جهم . .
ويقلب (ﷺ) الأمر على وجهه . . صارقاً نظرها عن كلا الرجلين . .
ثم يختار لها «أسامة بن زيد» (رضي الله عنه) أجمعين . .



الخيرة فيما اختاره الرسول:

رغم تردها أول الأمر . . في شأن زيد . . إلا أنها اقتنعت به زوجاً
بعدها رشحه الرسول مؤكداً هذا الترشيح . .
وكان من بركته أن جعله الله (تعالى) زوجاً مباركا «اغتنبت به» .



النبى أولى بالمؤمنين:

أجل . . إنه (ﷺ): أولى بالمؤمنين من أنفسهم:
فهو وصي . . كالأب على ولده القاصر .
وهو يبيع ويشترى . . عن البائع والمشتري .
فلو تعلق رغبتة بامرأة . . حلت له .



الله يغني كلاً من سعته:

وقد أغنى «فاطمة بنت قيس» بأسامة بن زيد . . عوضاً عما فقدت . .
وجزاء ما قدمت . .
ثم كانت مثلاً للزوجة الوفية . .
ومن وفائها: حكمتها في التعبير عن عواطفها في اللحظات الحرجة . .

والتي لم تفقد فيها توازنها ..
 بل ظلت تتحامل على نفسها .. حتى تجاوزت المحنة بسلام . لتجد
 نفسها تحت واحد من شباب الأمة المرموقين :
 أسامة بن زيد !

•••

ولو قد علمت الأطراف المعنية تدبير الله (تعالى) لما كان هناك خلاف
 ولا إسفاف .. ولأحلنا القضية على الباب العالي .. وعنده (عز وجل) من
 التدبير .. ما يرتاح به الضمير .

•••

وتبقى وصيته (ﷺ) بالظفر بذات الدين .. تبقى خير الوصايا من
 حيث كان الدين خير عاصم من القواصم ..

•••

أما بعد :
 فقد ترددت فاطمة (رضي الله عنها) بادي الرأي .. بعدما رأت من هيئة «أسامة
 بن زيد» ما لا يعين على قبوله زوجاً .

•••

ولقد كرر الرسول (ﷺ) أمره .. فكان ذلك الأمر .. تلك الكلمة
 الطيبة التي أطلت منها على فردوس الأسرة المستقرة .. فصار هواها فيما
 رضي الرسول لها .

•••

وقد أكدت التجربة صدق نبوءته (ﷺ) مبدوءة بتجربة فاطمة
 (رضي الله عنها) .. ومنتھية بملايين التجارب التي وازن الخاطبون فيها بين المظهر

والمخبر . . فلم يترددوا في الانحياز إلى القلوب العامرة بالإيمان . . غير
مفتونين بالجيوب الطافحة بالأصفر الرنان!!



ألا إن الأعلالي إن المظاهر . . لا تخيفنا . .
وإنما تخيفنا . . إنما تأسرنا: الأعماق!



ينظرون .. لكنهم لا يبصرون

اشترطت الفتاة على أهلها - قبل إتمام الخطبة - أن ترى خطيبها من خلال النافذة!

فلما رأته حسبته فارس الأحلام .. من خلال عينيه الخضراوين؟!
ولهذا السبب وافقت على الفور ..

ومع أن العين قد تكون «خضراء الدمن» كما أن الفتاة الجميلة قد تكون خضراء الدمن: حسناء .. في منبت السوء .. إلا أن الزواج قد تم بسلام ..
ثم عاشا في وئام ..

لكن يبقى ما نقوله تعليقاً على هذا الموقف .. وإتماماً لحديثنا عن زواج فاطمة بنت قيس .. والتي ترددت في قبوله زوجاً بادئ الرأي:

●●●

نقول:

ماذا رأت الفتاة من خلال النافذة؟

رأت وجهاً صبوراً .. وسمعت ضحكة أسرة؟

وماذا عن بقية أخلاق الفتى؟ .. هذا الفتى الذي عناه الشاعر بقوله:

ولم أر أمثال الرجال تفاوتاً إلى المجد .. حتى عد ألف بواحد

●●●

ولكن .. لماذا كرهته .. قبل أن تكون قد عرفته؟

ذلك بأنه كان :

أسود ..

وكان أفطس !!



ولا شك أن موجة من القلق راوحتها وغادتها .. وتدافعت أمواج أفكارها .. من السطح .. إلى السفح ..

ثم قررت أن تعتذر . خارجة بهذا الاعتذار من طوفان من المشاعر التي تفاعلت في داخلها .. فكان هذا القرار ..

لقد نظرت إلى أسامة بعين الراقدة .. فلم تر شيئاً من حيث إنها وقفت عند الرغبة العائمة .. ونسيت أن من تحتها شراباً طهوراً .. وإننا نستطيع أن نشرب سلسيلاً .. ممن تحفظنا عليهم .. ثم تكون عيوبهم زكاة عن هذا الذي ارتشفناه!

لقد كانت ذلك الذي عناه الشاعر القائل :

يا ناظرًا يرنو بعيني راقداً

ومشاهداً للأمر .. غير مشاهد



ويعينها المصطفى (ﷺ) على نفسها بقوله .. وللمرة الثانية :
« انكحي أسامة بن زيد ».

لم يقل لها : اسمعي الكلام!

أدركي قدر من يخاطبك ..

ولكنه (ﷺ) يعيد على سمعها اسم أسامة (رضي الله عنه) .. فلعل في التذكار

ما يعين على نظرة مستقبلية أعمق.. تتخطى القشرة البادية.. لتتلمس ما في الأعماق من كنوز!

وهذا هو الذي حدث: قالت:

«فنكحته»

لقد أدركت.. وفي لحظة عاد إليها وعيها - أدركت أن الذي يأمرها هو محمد (ﷺ).. ذلك الرسول الذي يساق المسلم إلى السيف.. ولا يصاب حتى بالرعاف!

إنه الرسول الذي هو بالمؤمنين رءوف رحيم.

(إذا حاورته.. وجدته حكيماً..

وإذا غضب.. كان حليماً..

وإذا ظفر.. كان كريماً..

وإذا استمنح.. منّح جسيماً..

وإذا وعد.. وفى.. وإن كان الوعد عظيماً..

وإذا شكى إليه.. وجد رحيماً)

•••

ولقد كان (ﷺ) في هذا الموقف: حكيماً.. حليماً.. سمحاً..

كريماً.. رءوفاً.. رحيماً.. حين اختار لها كفئها من الرجال: أسامة بن زيد (رضي الله عنه) وهذه صحيفة أعماله:

أ - عينه (ﷺ) على جيش وهو تحت العشرين.. سار به إلى الشام..

وكان من جنود هذا الجيش: عمر بن الخطاب (رضي الله عنه).. فهو قائد عسكري.. وابن قائد عسكري..

ب - أمه: أم أيمن (رضي الله عنها)، والتي كانت حاضنة النبي (ﷺ).

جـ - وكان يسمَّى «حِب رسول الله» وقال فيه (ﷺ) فيما رواه ابن عمر:

«إن أسامة بن زيد لأحب الناس إليّ وأنا أرجو أن يكون من صالحكم.. فاستوصوا به خيراً».

هذا الحب الذي عبر عن نفسه في هذا الموقف الذي روته عائشة (رضي الله عنها) حين عثر «أسامة» بعتبة الدار. فشج في وجهه.. فقال لي: (ﷺ): «أميطي عنه» (أزيلي ما على وجهه).
تقول عائشة:

فكأنني استقدرته..

فجعل رسول الله يمسه. ثم يمجه).



أسامة الذي كان من حكمته وشجاعته الذي قال لعليّ (رضي الله عنه) في محنته: (لو أدخلت يدك في فم «تنين» لأدخلت يدي معها.. ولكنك قد سمعت ما قاله لي رسول الله (ﷺ) حين قتلت ذلك الرجل الذي شهد أن لا إله إلا الله.. وقد أعطيت الله عهداً ألا أقتل رجلاً يقول: لا إله إلا الله.



وهذه هي «مواصفات» العروس الجديد.. وقبلها.. وفوقها.
شهادة الرسول الحبيب.. والذي ما أحبه إلا لهذه الخلائق الكريمة فيه..



وقد أكدت الحوادث صدق نبوءته (ﷺ). فيما شهدت به «فاطمة بنت

قيس» نفسها والقول ما قالت :

لقد قالت :

(فجعل الله فيه خيراً اغتبطت به).

لقد صار بيتها «صدفة» . . وكانت هي «الدرة الغالية» فيه . .



نعم: حلم جميل لكنه مستحيل

انفض مجلس الصلح بين الزوجين على الاستمساك بالميثاق الغليظ ..
بعد معايشة دامت ربع قرن من الزمان ..
ولكنها كلمة قالتها الزوجة مفادها: أن رجوعها إليه من أجل
الأولاد .. وفراراً من حالة سوء يُشيعها العاذلون ..
ومعنى ذلك أنه ليس طرفاً في القضية .. وإنما ما زالت على ضلالها
القديم: بذاء وجفاء!
إن الزوجة هنا خائفة من أن تصير في الحي «مطلقة» وذلك؛ عار تأباه
كرامتها .. أما أن تجرب الحياة مرة أخرى .. على نحو تلتئم به الجراح ..
مع رفيق الكفاح .. أما هذا .. فلم يدخل في حسابها ..



وكان طبيعياً أن يتراجع الزوج في قراره .. بفراره من هذه التي عناها
الشاعر:

أنت وحياض الموت بيني وبينها

وجادت بوصل .. حين لا ينفع الوصل!



وقلت للزوجة الناشز:

لا داعي لتلك الحساسية المفرطة: والطلاق وإن كان أبغض الحلال ..

إلا أنه حل إسلامي.. حين لا يكون سواه.. وفي موقفنا الذي نعلق عليه.. ماذا نرى؟

صحابي.. يطلق صحابية!!!

تزوجها على السنة. ثم ها هو يطلقها على السنة.. فأية غضاضة في هذا؟!

إننا نتحفظ على حق الطلاق في يد الرجل.. إذا كان باعث التغيير خوفاً أو طمعاً..

أما إذا كان نتيجة لتأملات وتجارب.. تفرض علينا التغيير.. فهو الشر الذي لا بد منه: وذلك شأن الزواج في وجدان المسلم الملتزم.. إنه الفرق بين: العشق.. والود..

وإذا كان «العشق» أسهل.. لأنه لا يتطلب منه «اللطف» إلا بعض الوقت.. فإن الزواج أبعد مدى.. لأنه يتطلب اللطف «كل الوقت»..

فإذا تعذر.. كان لا بد من الفراق.. والذي يتم بلا حسلية؛ لأن الله (تعالى) هو الذي يزوّج وهو الذي يطلق: ﴿عَسَىٰ رَبُّهُ إِن طَلَّقَكَ أَن يُبَدِّلَهُ أَزْوَاجًا...﴾ [التحريم: ٥].

وقلت للزوجة: صحيح أن المجتمع يظلم المطلقة أحياناً.. محملاً إياها مسؤولية ما حدث..

ولكننا نقول: لماذا لا يتحمل الزوجان المسؤولية معاً.. وبنفس المقدار..

قد تكون الكلمة الأخيرة من قبل الزوجة.. فكانت في سلسلة لنزاع القشة التي قصمت ظهر البعير.. ولكن الشجرة الضخمة لا تسقط بالضربة الأخيرة..

وتصوروا مشهد شجرة «الصنوبر» :
 إنها تضرب مائة مرة . . ولكنها لا تقع إلا عند الضربة المائة . .
 فهل تقول : إنها سقطت بها وحدها ؟ !
 لا . . بل إن سقوطها بدأ عند الضربة الأولى !



وقلت للزوجة الغاضبة :
 انظري إلى هذا «النجار» الذي يتصبب جبينه عرقاً . . في محاولته
 التوفيق بين ناحيتي النافذة . . تلك المحاولة التي باءت بالفشل . . لماذا ؟
 لأن طرفي النافذة : كلاهما كان تصميمه «يمين» فهو في حاجة إلى
 قسيم «شمال» يتحقق بها التجانس . . فالتكامل ... فالتعاون على تحقيق
 الهدف . .

ومن معاني ذلك أنه : لا حساسية . . إذا تم الطلاق :
 فقد يكون كل من الزوج والزوجة على غاية ما يكون الكمال
 والجمال . . ولكن عنصر الانسجام مفقود . .
 وإذن . . فليس هناك من سبيل إلا فك الارتباط . . لبحث كل طرف
 عن نصفه الملائم الموائم . . على ما يقول الشاعر :

أرى وجهًا: كضوء الفجر مبيضًا

وشعرًا كلون الليل: مسودًا

ضدان: لما جمعا.. حسنا

والضد يظهر حسنه الضد!

إذا حدث:

هناك بعض التفصيلات في رواية ابن كثير والذي روي:

(حدثنا عامر قال:

قدمت المدينة. فأتيت فاطمة بنت قيس. فحدثتني أن زوجها طلقها..

على عهد رسول الله (ﷺ).

فبعثه رسول الله (ﷺ) في سرية. قالت:

فقال لي أخوه:

أخرجني من الدار.. فقلت:

إن لي نفقة وسكني حتى يحل الأجل.

قال: لا.. قالت:

فأتيت رسول الله (ﷺ) فقلت: إن فلاناً طلقني - وإن أخاه أخرجني.

ومنعني السكنى والنفقة..

فأرسل الرسول إليه فقال:

«مالك ولا بنت آل قيس؟».

فقال: يا رسول الله: إن أخي طلقها ثلاثاً جميعاً. فقال رسول الله

(ﷺ): «انظري يا بنت آل قيس: إنما النفقة والسكنى للمرأة على زوجها ما

كانت له عليها رجعة. فإذا لم يكن عليها رجعة.. فلا نفقة ولا سكنى».

●●●

وهكذا يتم الخلاص في هدوء لا تسمع فيه هجراً.. ولا ترى نكراً..

وإنما هناك ضمانه العدل وهو الرسول (ﷺ) .. والذي هو أولى

بالمؤمنين من أنفسهم.. يتحمل مسئولية الموقف كلها..

ليكون حكمه في النهاية فصل الخطاب..

ذلك بأن مما يزيد الموقف تعقيداً هو ما يحدث اليوم من تعدد وجهات
النظر... وكثرة الفضوليين الذن لا ناقة لهم في القضية ولا جمل...
وما يترتب على ذلك من تداخل المفاهيم... في حرب سجال... لا
تهداً إلا لتبدأ من جديد...
ولن يطفئ نارها إلا «كبير العائلة» الذي يقرر أن الحب العقلي: يمكن
العدل فيه: التحكم فيه...
أما وكه القلوب فقد يصعب التحكم فيها...
وأحياناً يحكم العقل بإمكان تحقق الحلم الجميل... ولكنه بلغة
القلوب: مستحيل!



إذا راح منا سيد قام سيد!

كانت الزوجة سيئة الخلق .. لم ير منها زوجها يوماً يبكي عليه!
ومع ذلك فقد صبر على مضايقاتها .. مقهوراً بسوء عشرتها على ما
يقول الشاعر:

وصاحب كالدمل الممد حملته في قطعة من جلدي
ورفض الزوج المظلوم فكرة الطلاق .. رغم توفر دواعيه . وفقدان
عاذليه ..

كل ما فعله هو كلما نزغها منه نزغ أنشد:

وإني لمشتاق إلى موت زوجتي
ولكن قرين السوء: باق معمر

فياليتها في القبر كانت ضجيعة

يعذبها فيه منكر ونكير!

ولكن «أبا عمر بن حفص» طلق «فاطمة بنت قيس» .

وفي الوقت الذي كانت ترقب عودته من أرض المعركة منتصراً إذا به
يرسل إليها «ورقة الطلاق» فكانت الصدمة التي لا تطاق!

وإذا كان هناك من الزوجات من غاب نجم سرورها فحزنت لغيابه ..
فإن «فاطمة بنت قيس» لم يطلع نجم سرورها بالمرّة حين كانت صدمتها
صدمتين ..

وإن كان لزميلة لها نفس ظروفها دموع تحدرت على وجهها... فإن
دمع... «فاطمة» مخزون يحرقها في أضلعها.

•••

ضراية

ولقد عبّرت عن المعركة في أعماقها برفض الشعير من مطلقها الذي
جمع عليها مصيبتين:

مصيبة الطلاق. ومصيبة الإهانة حين طلقها غيابياً.

وحين كان «الشعير» متعتها... التي لم تتمتع بها!

وأحياناً... يكون «التساهل» هو الوجه القبيح للتسامح! من أجل
ذلك... لم تسامح... ثم ذهبت إلى النبي ﷺ تشكو إليه بثها وحزنها...
ولم يكن الحكم هنا لصالحها... ومع ذلك فقد رضيت به... لأنه حكم
رسول الله ﷺ.

•••

تأمين مستقبل المطلقة:

ولكن... يبقى مستقبل «المطلقة» فماذا أعددنا له؟

وأذكر هنا مشهد الدار في قريتي عندما ماتت سيدته:

لقد بكى الجميع، إلا رب الدار الذي بدا صامتاً كئيباً... لأنه كان
مشغولاً بمستقبل الصغار...

وإذا وجد اليوم من يبكي من أجله... فإن المصيبة الحقيقية حين يعود

المعزون إلى ديارهم .. ليواجه الوضع الجديد وحده . ليرى البستان وقد صوحت أغصانه .. وطارت حمامته .. فلا هدبل .. ولا بدبل !

نفس هذا المعنى نذكره .. وقلوبنا تطير الآن من ضلوعها بينما «فاطمة بنت قيس» تتجاوز عتبة الدار بلا تحية ولا وداع !

ولكن الرسول ﷺ يظل معها رؤوفاً رحيمًا :

أمرها أن تعتد في بيت «عبد الله بن أم مكتوم» .. لا في بيت أم شريك الذي يغشاه الصحابة ..

ومع التسليم بطهارة القلوب .. كل القلوب يومئذ .. إلا أنها لفتة نبوية قوية إلى ضرورة الاحتياط .. فراراً من كيد الشيطان الذي ما يفتأ يكيد للإنسان حتى في أظهر بيئة عرفتها الحياة .

بل إن كيد الشيطان ليدق وبالذات في الجو الطاهر .. لعله يقتنص صيداً ثميناً يهز به بناء الإسلام .. حين تكون ضربته في الخشب .. لا في السلب !

وحتى لا تشعر فاطمة بالاغتراب يوصيها بإعلامه .. عند انتهاء عدتها ..

ولا شك أنها الرحمة والرافة .. وكانت أحق بها وأهلها «مطلقة» كان اسمها بالأمس : الروح .. والقمر ..

أما اليوم فهي مجرد «فاطمة» يعود إليها اسمها الحقيقي والذي غاب

أيامًا في زحمة الانفعالات . .

لقد عاشت من قبل عاطفة الحب . . الذي كان هو البداية، وإذا بقيامتها اليوم تقوم: بالطلاق الذي أنهى هذه البداية! لقد كان الزوج من قبل يفتح عليها عينيه . . ثم إذا هو اليوم يغمضها . . وكأن شيئًا لم يكن! وأحيانًا تكون أحزان البرايا . . مطايا . . تقودهم إلى ما لا تحمد عقباه

•••

ولقد كان من سعادة «فاطمة» رضي الله عنها أن تكون من الرسول في سويداء قلبه . .

وإذا مرت أيام . . العدة . . بطيئة ثقيلة . . فقد انتهت على أي حال . . لتذهب إليه ﷺ . . لتوفي بعهدا بأخباره . . حتى يتصرف!

•••

ولقد أخبرته أن اثنين من رموز المجتمع تقدموا لخطبتها . . ويعني ذلك . . أن ليل الهموم قد انجلي عن ضوء النهار . . وأن تجربتها التي كانت مفعمة بحرارة المعاناة اليومية . . صارت اليوم كتابًا منقوشًا في طبعة جديدة على لوحها الحساس! ولكنها لا تريد أن تنفرد في القضية بقرار . . ذلك بأن فشل التجربة الأولى . . قد تتحملة النفوس . . على رجاء عوض جميل جديد . .

ولكن فشل التجربة الثانية . . يَنكأ الجراح . . ولا أمل فيها للنجاح . . من أجل ذلك تعرض عليه ﷺ أسماء من تقدموا لخطبتها.

•••

ولقد كان ﷺ نعم الولي . . الذي يختار لابنته أفضل ما يليق بها . .
ومع تقديره ﷺ للرجلين كليهما . . إلا أنه ينوب عنها في الاعتذار
إليهما . . حماية لها من تجربة لو تمت . . فسوف تجعل حياتها جحيماً لا
يطاق :

فمع التقدير الكامل لمعاوية . . إلا أنه فقير . . ثم «لأبي الجهم» . . إلا
أنه عنيف !

ولما كان المستشار مؤتمناً . . فقد كان ﷺ طليعة المؤمنين الواقفين مع
«المطلقة» . . التي يجب أن نختار لها من يملأ حياتها . . لتستأنفها من جديد .
وكان هو «أسامة بن زيد» رضي الله عنه . . والذي كان «مقاتلاً» يخلف اليوم
مقاتلاً في مملكته . . وصدق الله العظيم
﴿وَأِنْ يَتَفَرَّقَا يُغْنِ اللَّهُ كُلًّا مِنْ سَعَتِهِ﴾ .



الاختلاف الوبيل ومحاولة نزع الفتيل

تظل الأسرة مستقرة مستمرة.. ما دارت على محورين: المودة..
والرحمة.. ليتحقق بهما معاً: السكن المنشود.



ولكن قد تطرأ عوامل.. لم تكن في حساب.. تحاول أن تشوه هذا
الجمال.. أو أن تسلب ذلك الكمال.

وإذن فباسم هذه الرحمة.. وتلك المودة. ينبغي أن تهب كل الأطراف
المعنية.. حتى تستقر السفينة التي تلعب بها الأمواج.. وقبل أن تواجه
الأعاصير: ويتم ذلك عبر مراحل ثلاث:

أ - مسئولية الزوج الذي يمسك بالمجذاف بحكم قوامته ورجولته..
وذلك قوله تعالى ﴿وَاللَّاتِي تَخَافُونَ نُشُوزَهُنَّ فَعِظُوهُنَّ وَاهْجُرُوهُنَّ فِي
الْمَضَاجِعِ وَاضْرِبُوهُنَّ﴾. [النساء: ٣٤].

ب - مسئولية الأسرتين التي تفرض عليهما انتخاب حكمين في محاولة
لرأب الصدع.. وردع الطرف المستبد.. والذي يحاول بالاستبداد أن يحيط
نفسه بقضبان من التفاليد تجعله فوق النقد. وفوق المساءلة.

﴿وَإِنْ خِفْتُمْ شِقَاقَ بَيْنِهِمَا فَابْعَثُوا حَكَمًا مِّنْ أَهْلِهِ وَحَكَمًا مِّنْ أَهْلِهَا﴾.
[النساء: ٣٥].

ويعني ذلك: أن تدخل الحكمين لا يكون مبكراً.. وعند بادرة الخلاف الأولى.. ولكن عندما يوشك الطرفان أن يتناقضا كل في ناحية يناوئ صاحبه.

وذلك.. يتيح للزوجين فرصة يتفاهمان معاً فيها أو لا وبمعزل عن كل الأقربين والأبعدين..

﴿وَإِنْ امْرَأَةٌ خَافَتْ مِنْ بَعْلِهَا نُشُوزًا أَوْ إِعْرَاضًا فَلَا جُنَاحَ عَلَيْهِمَا أَنْ يُصْلِحَا بَيْنَهُمَا صُلْحًا وَالصُّلْحُ خَيْرٌ﴾. [النساء: ١٢٨].



وعندما تستعلي الزوجة على محتتها بهذه المبادرة الإيجابية مع الزوج.. تكون أعقل من تلك التي فقدت مقاومتها واستسلمت لبوادر اليأس القاتل.. قائلة:

نفد الدمع على طول البكا

فاستعار الحب لحمي ودمي

أنا والآلام تستهدفني

نادم.. لو كان يغني ندمي

قد كرهت النوم حتى أنني

لو أتاني طيفكم لم أنم!

إن الطلاق عملية طويلة تنتهي به «شركة زوجية». كان من الأفضل للمجتمع أن تبقى..

إنها عملية إنسانية ملتزمة بالصبر وبالحكمة والأناة وهي تتخذ نفس المراحل المقابلة لعملية الزواج نفسها:

من طول البحث . وحسن النية . واستبعاد فكرة التفريق . وحشد الأقرباء ، والأصدقاء في سبيل إعادة دعم هذه «الشركة الزوجية» بكل وسائل إنقاذها من «الإفلاس» . . قبل التوقف عند النهاية المكروهة أخيراً وهي .
ضرورة التفريق . . أو الطلاق .



فإذا استنفدت كل الجهود . . ووصلت العلاقة إلى طريق مسدود . .
كان لا بد من غضبة مضرية لحمايتها .

من السقوط . . هذا السقوط المحتمل . والذي يجد فيه كل من الطرفين
نفسه بين شقي الرحي :

إما الانفلات وتحطيم كل القيود . . وإما الإحباط وتراكم العقد
النفسية . ثم ليكون الفراق بعد ذلك : الكى . . وهو آخر الدواء الذي لا مفر
منه وإن كان مر المذاق .



إنه الطلاق؛

[الذي تقطع به شجرة المودة والرحمة والذرية في آية من أعظم آيات
الله - وتجريدها من ظلها المؤنس . . وتشريد من كان حقهم أن يفيئوا إلى
ظلها من الأبناء والبنات ثم . . قطع كل تلك الأواصر . التي جمع الله بها
الزواج بين أهل الزوجين وأصدقائهما .

لكي لا يبقى من حصاده إلا هذه الذكريات الأليمة . التي يتركها
الفراق والطلاق . . لتجتر ذاكرة الزوجين . . وهما يتذكران - كلما تذكرنا -
بعد صمت العاصفة . . ذلك الجرح . . أو تلك الجراح . التي أصابت كلاً
منهما . . نتيجة سقوط بيت قبل أن يتم . وفشل زواج دون أن يوفق . .
وانطفاء جذوة مقدسة ومطهرة . . قبل أن تضئ ما حولها .

•••

وهذا هو حصاد الهشيم . . متمثلاً في تلك الصورة الكابية . . ولعل
في تمليها ما يزهّد الغاضبين فيها

•••

وعجيب أمر المتسرعين:
﴿ مَا يَأْتِيهِمْ مِّنْ ذِكْرٍ مِّن رَّبِّهِمْ مُّحَدَّثٍ إِلَّا اسْتَمَعُوهُ وَهُمْ يَلْعَبُونَ ﴾ * لاهية قلوبهم
[الأنبياء : ٢ / ٣] .

ومن الذكر:
أنا ندعو الله تعالى . . فيستجيب لنا . .

أما حين يدعونا سبحانه . . فإن خطانا تبدو متشاقلة وفي غمرة انفعالاتنا
ننسى هذا . . أو نتناساه لاهين لاعبين . . غافلين عن عقبي عبادتنا أهواءنا
معرضين عن الدواء الذي يخلصنا من صدام العواطف ومن الدواء . . هذا
الدعاء الذي كان يكثر منه ﷺ :

[يا مقلب القلوب : ثبت قلبي على دينك وطاعتك] . فهل دعونا الله
تعالى أن يثبت قلوبنا . . حتى لا نطرد أعزاءنا . . ونيتّم أكبادنا ؟

لقد كان العالم يبدأ الحديث مخلصاً . . وأثناء دراسته يعترضه ما يغير نيته . . وإذن فالحديث الواحد يحتاج إلى مجموعة من النوايا تواكب المحدث حتى ينتهي من حديثه . .

وكذلك الزوج . . والزوجة: فليكونا على حذر من تقلب القلوب . ذلك بأن القلوب مثل ريشة تقلبها الريح ظهراً لبطن . . والأزواج مطالبون باتقاء الفتنة . . باللجأ إلى مقلب القلوب سبحانه . . والذي لا يخيب من رجاء . . ولا يردده يديه صفراً .

